ممكنات البحث العلمي وسحر الكتابة

د. بوبكر معازيز
جامعة ابن خلدون. تيارت . الجزائر

تاريخ الارسال: 10-02-2020 تاريخ القبول:01-04-2020 تاريخ النشر: 30-09-2020

مخطط الورقة :

إضاءة:

يتسلل إلينا دائما في مواجهة (البحث) أسـئلة كثيرة تتعلق بهذا الكون الرحيب،وتتعلق بالموضوع،وبالباحث،وبالمنهج، وخاصـة حين يتعلق الأمر بالعصـر الحديث الذي يقدم نفسـه على أنّه واحدا من العصُـور المختلة عقليا،مثير للدّهشـة على جميع الأصـعدة ،وفي عالم الأفكار تحديدا، من هنا تثير أسـئلة الكتابة في العصـر الحديث، كثير من الأجوبة التي كانت (مجهولة) في زمن سـابق،وهي تبدو لنا الآن (مُدمجة في حياتنا) اليومية إلى درجة كبيرة. وبهذا الاعتبار يتحدد (فعل الكتابة) ويتحدّد معه (البحث العلمي) الذي يدور في (إطار التنظيم الدقيق) لمجموعة من (الأفكار) من أجل الوصـول إلى (حقيقة) لم تكن معروفة أو غائبة . ويطبع هذا التنظيم وجود (طائفة من القواعد) العامة التي تسـيطر على سير العقل،وتظفر بقدر كبير من (شـخصـية الباحث) وتوجّه سلوكه في (استقبال المعلومة و(تنظيمها)..كما أن الإخلال بهذه (الأنظمة والقواعد والصفات) ستلقي بالباحث المتعجل إلى الهاوية.

نحن نعلم هذا ولكننا نطالب بهذه الحرية التي تبلغ ب (فن الكتابة) المدى الذي يأتلف فيه (الوحشي)،وتتآلف فيه الأفاعي والطيور والخراف والنمور كما يقال،وهذه درجة عالية من (التشكيل)،وحظوة كبيرة لا يبلغها إلاّ الباحث الخلوق المتواضع والمتعهد لعمله..البحث العلمي ينبغي أن يكون جليلا يُبشر (بقيمة علمية وأدبية) هائلة. ومن التعسف أن نُحمّل الباحث كل تبعات البحث العلمي في ظل (غموض الرؤية واختلالاتها) ،و(عشوائية المنهج وضبابية المنهجية) .ولكي نتصالح مع أفكارنا في هذا الشأن ينبغي أن نتحدّث عن الموضوع من الزوايا الآتية :

Paper outline

Lighting:

In the face of (research), many questions pertain to this vast universe that relate to the subject, the researcher, and the curriculum, especially when it comes to the modern era, which presents itself as one of the mentally disturbed eras, which is surprising at all levels, and specifically in the world of ideas, From here raises questions of writing in the modern era, many of the answers that were (unknown) in an earlier time, and they seem to us now (integrated in our life) daily to a large degree. With this consideration, (the act of writing) is determined and defines with it (scientific research) that revolves within the (framework of the precise organization) of a group of (ideas) in order to reach a (truth) that was not known or absent. This organization is marked by the existence of a general (set of rules) that control the course of the mind, and conquer a great deal of (the personality of the researcher) and direct his behavior in (receiving and organizing information) .. Also, breaching these (regulations, rules and attributes) will throw the hasty researcher into the abyss.

الإحماء الأوّل:

ممكنات البحث العلمي المجالات والحدود

لقد تحدّث الفكر اليوناني قديما على مايطلق عليه (الفروض)،و((الفرض هو حل محتمل للمشكلة.لكنّه يحتاج إلى طرق لتحقيقه وإثبات صحته (أو عدم صحته)،ويجب أن يكون ذلك واضحاً لدى الباحث من البداية، للفرض الجيد خصائص منها أن يصاغ في ألفاظ سهلة مُحددة وعبارات قصيرة وبعيدة عن الغموض))[1] حتى تتكشف أمامنا المسالك التي نسلك لمعالجته والاطمئنان إليه ، وعليه يتأسس التفكير لبناء هذا النشاط المعرفي باستخدام الطرق والأساليب العلمية للوصول إلى الحقائق التي تميزه عن سواه،وتحقق له هويته في نمو المعرفة الإنسانية ،التي هي –بالنهاية– هي تراكمات وأفكار واكتشافات وإسهامات تضافرت

لتُشـكّل كل المكونات المعرفية والثقافية المحيطة بنا .بالإضــافة إلى ذلك نجد البحث العلمي لا يفصل بين هذه التراكمات ولم يُهمل المعنى بصفة كلية،ولكنّه يترك للذات حرية التّصور والتّصـرف في العناصـر العلمية المتاحة وهي دائما في((صـراع مع الأنسـاق والبُنى التي تحيط بها في هذا العالم))[2]،ومع هذا الصـــراع فإنها تجنح إلى مايطلق عليه (القراءة التبسيطية)،وهي ليست خطيئة في الفكر البحثي وإنما تسمح بتزويد (الباحث) و(الموضوع) و(القارئ) لاحقا بتجاوز (عقبة التعقيد) وتحيله على (صــناعة أسـئلة جديدة) قادرة على مواجهة الرّاهن والكشــف عن آليات جديدة لا حاجة فيها (لتمزيق التّواصـــل المعرفي) بين (الفكرة والتراث) ،وبينها وبين الحداثة، إنّ هذه الرؤية التبسيطية ستؤسس لكيانات معرفية جديدة قد يكون لها مباشرة تشريح الواقع وإزاحة ما فيه من لبس وغموض.

ومن جهة أخرى فلا مشاحة في أن زاوية النظر إلى حياة إنسان ما ،تسهم إلى حد بعيد في ترتيب كثير من الأحكام على آرائه،ولذلك فعلى الباحث أن يعرض عرضا مكثفا لاهتمامات هذا الإنسان من خلال دراسة القضايا اللغوية والأدبية وسائر الأفكار التي تقترب من كيانه وتظفر بقدر كبير من اهتماماته، البحث العلمي إذن لا يكتفي (بالإشــارات العابرة) ،لأنها لا تفي بالغرض،بل ينبغي على من يروم البحث أن يسترعي اهتمامه كل ما يحيط بهذا الإنسان ويتكئ على الحياة العاقلة والمجنونة والحاضـرة والماضـية ويحق له أن يسـتشـرف هذه الحياة على ضوء التشريح الذي يقوم به .

من هنا يبدو أن اهتمامات (البحث العلمي) ليســت منغلقة ولكنها تتحرّش على كل (الأخبار والأجيال والدول) وتستفيض في الإنجازات والإخفاقات التي واكبت هذه الأجيال.

ومما يســترعي النظر هنا أنّ (البحث العلمي)، يقوم بتقشــير النُّصــوص حتى ولو كانت أسـطورية ،كما يكشـف عن مسـتويات التفكير التي توفرت و(تمركزت) حول الأسـاطير،لأنّ الباحث الذي يعيد (إنتاج الأســطورة) ونزع طبقاتها المتراكمة مع الإفادة من (النظم الثقافية)

المتجـاورة والمتحـاورة، يسـتطيع أن يضـيء (جوانـب مظلمـة) من حيـاة هـذا الإنسان،وفتح(المغاليق المعقدة) ولاسيما المتعلقة بحياته الدينية والسياسية والفكرية.

لكن هناك فكرة هامة لابدّ من توضيحها،وهي أنّ ((الاعتقاد في تميز بعض العقول قد يؤدي إلى نوع من التكاسـل أو التراجع عن النهوض بمسـؤولية البحث العلمي،ومنطق هذه الفكرة يتسـلل على النحو التالي:مادام التقدم العلمي رهناً بظهور بعض العقول المتميّزة (العبقريات) فما الفائدة من اشـتغال أي إنسـان عادي بالبحث،خاصـة إذا علم منذ البداية أنّه ليس عبقرياًّ؟))[3] ،فهذا الاعتقاد سـيقف حائلا أمام البحث ويُضـيّق على كل من يروم التأليف أو العملية الإنتاجية وفعل الإنتاج ((يشـمل كل ماهو خلق من قبل الفنان،ويشـمل الإنتاج المباشر للعمل الفني،كما يشمل سائر العمليات المهيأة له والمؤدية إليه باللزوم.وفعل الإنتاج هذا يشـير إلى سـائر العمليات الإنتاجية،ومن النادر أن يضـم عملية إنتاجية واحدة ،بل من المسـتحيل ذلك واقعى،لأنّ الفعل الإنسـاني عامة،والفعل الفني نوع منه،متعدد الجوانب بالضـرورة ويتطلب امتداداً في الزمان، وهو نوع من التعدد،فلا نقول "العملية الإنتاجية" على وجه المفرد،بل نقصد بها النوع كله))[4].وللوصول إلى نتائج تتوهج فيها المعاني وتكون جوابة عن كل المشـاغل والمسـائل ينبغي الالتزام بتحصـيل قدر كاف من المعارف الأسـاسـية (المعرفة الدينية)،(التصـور الواضـح للثقافة الإسـلامية)،(معرفة أهم المصـادر)،و(الدّراسـات المسـتشـرقين)،و(المقولات المركزية للحضـارات القديمة)..هذه المعارف سـتُمكن الباحث من الدّخول في عملية الإنتاج ودون التورط في الأحكام المُزيّفة.

والباحث الذي يملك هذه الأساسيات تنشأ لديه ((الأفكار متوهجة مختصرة مُتجاسرة على فك عديد الأطواق المغلقة برغبة التعرّي عند الإشارة إلى حُبْسة العقل،وسيادة الفوضى،واستفحال القوة،وتعاظُم تخلفنا، وانحباس إرادة الفعل والإبداع داخل سـجون وأقبية، بعضـها موروث وبعضـها الآخر حادث))[5]. ومن هنا فقراءة الواقع أو تشـريحه تقف بنا علىعدد من العناصـر التي ستوجه (القضية البحثية) وتوجه (القارئ)لاحقا للوصول إلى دلالة البحث ومزيته والهدف

منــه. ومن هــذه العنــاصــــر الفــاعلــة والتي تتبـدى في البحـث (الحيــاة الســياســية،الاقتصــادية،الاجتماعية،الثقافية)،يضــاف إليها كفاءة الباحث ومقدرته في الإقناع،و((بالمقابل فإنّ النّص بدوره يطرح أســئلة وعلى المتلقي هذه المرة أن يجيب،يظهر هذا عندما يتعارض النّص مع التصورات المألوفة لدى المخاطبين.وقد يؤدي الأمر إلى إبراز تصــورات جديدة:أنظر مثلا ردود الفعل التي أثارها شــعر أبي تمام في الماضــي))[6]،وهذا الأمر يطلق عليه (علاقة التوتر) التي لا ينبغي أن تغيب بين المتلقي وبين العمل المُنجز أو النّص المنتخب للبحث أو للقراءة.

والسـؤال الذي أود الخوض فيه في هذا السـياق هو: هل للبحث العلمي علاقة بالتاريخ أو هو أسـاس لاكتشـاف أننا نسـتطيع أن نصـنع التاريخ؟،وهل هذه الوقائع تختزل الفرد وتدفعه للذوبان في داخل الجموع؟،وما هي القضـايا والحدود التي نفكر فيها وصـالحة لشـحن الطاقة الإبداعية للباحث؟،وكيف نختزل التجربة البحثية ؟،وهل يمكن أن تُصــرّح بالسُـؤال وتنتصـر (للتاريخ العميق)؟. وفي هذا السـياق تقتضــي ((ثقافة "التاريخ العميق" اتســاع الرؤية وتعدُد المراجع وتـداخـل الحقول،إذ لا يمكن مقـاربتـه إلاّ بـالشُّــمول المعرفي وثراء التعـدد المرجعيّ))[7]..والعالم الأدبي والفكري لكلّ باحث ((لا يكتفي عادة بالأجوبة،بل يثير الأســئلة تلو الأسئلة بمساءلات مختلفة،لينتصـر بذلك لثقافة السؤال على ثقافة الوثوق التي لا تُنْشـئ إلاّ الجمود والتّعصب و واحديّة المنهج والاتجاه والتّعصب والعنف المُدمّر القاتل لإرادة الذات وللآخر معاً))[8].

إنّ الأمر لا يتعلق بالتشكيك بالقضـايا والنصـوص المختلفة المؤسسة للصـرح الثقافي قديما وحديثا،بل إنّ اســتمرار البحث والسـؤال هو التأكيد على أنّ الهوية تحتل جزءا كبيرا من هذا الصـــرح الذي يســتفزنا لإعادة النظر في طريقة تصــورنا للأحداث والأشــياء.وهو ما يعني بالضـــرورة الاحتكام لحقائق التاريخ لأنّ (التاريخ شـــأن إنســـاني)[9] بالدرجة الأولى ،وهو المســتهدف الأوّل بالتفكيك والتشـريح ،وعند هذه النقطة يمكن تصــور السـبل السـليمة في

التعاطي معه ،وهو ما يعني ،بعبارة أخرى ،إعادة النّظر في قضـاياه وطريقة استنطاقه ،وعند هذه النقطة أيضـا ينبغي أن نؤكد أنّ (أسـئلة النّاس واحدة)،أما (الأجوبة فتتكفل بها الثقافات واللغات المختلفة).

القضـــــايا المتمكنة فينا هي دائما مرتبطة بوجود فائض في القيم أو القوة ، تتخطى حدود الممكن والمحتمل والمســتحيل في الوجود الإنســاني كما يقال ،لذلك نجد أنفســنا مضــطرين لإعادة النّظر فيها والاســـتجابة لأحلامنا فيها ومن ثم ف(حدود البحث العلمي ومجالاته) مشروطة بهذه القيمة وهذه اللحظة التي تواجهنا كلما حاولنا استيعاب ذواتنا واكتشاف أبعادها .

الإحماء الثاني

صفات الباحث ودورها في تنظيم الأفكار وافتكاك المعنى

قد لا نجانب الحقيقة إذا قلنا بأنّ الباحث الناجح هو الذي يتفهّم صــيرورة الحاضــر وتقديمه بواقعيته و إشـــكالياته المُعقدة،وبالقدر نفســـه ينبغي إدراك التراث وما يســـوده من غُموض وضـــــباب،والباحث النـاجح –في نظرنـا– هو الـذي يمتلك أفق ينفتح بـه على المـاضـــــي والحاضــر ،ولا يُمكنه ذلك إلاّ إذا كان يمتلك مُؤهلات علمية وخُلقية تميزه عن ســواه وتدفعه عن البحث في المَلَذّات الجمالية في المعارف التي تُعرَض عليه أو تلك التي يتخيرها لإسناد ودعم وُجهات نظره .

فالمشـــهد الإبداعي يتشـــكل على مهل ،ولكن الذي يُســـهم في دُخوله ووصـــوله إلى الفنية المطلوبة هو تلك الصـــفات التي يتســـم بها الباحث في مُواجهة هذه المعارف التي تُعرض عليه، فقد ذكر بول ريكور أنه (أصـــبح فيلســوفا من أجل حلّ تناقض ما)[10]،و هذا التناقض المثير هو الذي يتكفل به الباحث ويُوفر له رؤية فريدة تحسم التناقض فيه والاختلاف.الباحث

هنا لا يريد استنبات معرفة مضادة،ولكنّ ما يتسم به من صفات سيُمكنه من ترويض النصُوص أو الشَّواهد المتواطئة التي تُعرض عليه في أثناء عملية البحث.

وهو ما يترتب عليه نوع من الإحساس بالتفوق وامتلاك عالم الأفكار،ومحاولة ردم الفجوة بين الباحث وأقرانه،فالأفكار التي نقرأ تُقدم نفسها على أنها عبثا ومصدر للإزعاج،لأنها متعالية ونحن في حاجة إليها.نحن قرّاء في مواجهة (الجن)،ولذلك ما نقوم به من (نبش) يظل مُحبطاً مالم يُدعم بتلك الصفات التي ستدفع عن تلك الأفكار الغموض وتنعشه بعد ذلك الملل الذي قد يتمكن منها يقول غوته ((ينتهي أدب ما بأن يَمَلَّ نفسَه مالم يُنعشه إسهامٌ أجنبي))[11]،فإذا سلّمنا بأنّ الأدب أفكار يحيط بها القحط والجفاف ويتسرب إليها الملل ،فإنّ الباحث هو الذي يعيد لها البريق الذي فقدته،وليس كل باحث بقادر على إعادة هذه الروح .

يمكن القول بأنّ الاتجاه نحو الإبداع والبناء يتم من خلال مجموعات عمل (خلق ظروف مناسبة)،و (هدم التراتيبية)،و (هدم الموانع) و أخيرا (الضبط الذاتي)،وهي أمور يقوم بها الباحث في ترويضه للأفكار المعروضة ،وهنا تظهر علاقة الباحث بذاته،فالباحث ((يضفي على نفسه،صفة لكارزمية،الرّسولية،المحملة بهم تاريخي واجتماعي ضخم،فهو صاحب رسالة شخصية ملهمة ومعصومة تضع نفسها فوق الجماعة..وهو على الرغم من عقده الشخصية المتمثلة في نوع من البحث الدؤوب عن الاعتراف بالتميز،يتسم في الغالب بالغيرية والتفاني ونكران الذات،ويهب كل وقته وقدراته وممتلكاته في سبيل تحقيق القناعات والأهداف التي يؤمن بها والتضحية من أجلها))[12].

وهنا يمكن التشديد على ما يُطلق عليه (التفكير الناقد)،وهو ((تفكير تأملي يرتبط بقدرة الفرد على النشاط والمثابرة،وهو كذلك استخدام المهارات المعرفية أو الاستراتيجيات التي تزيد من احتمالية النتيجة المرغوبة،وهو يستخدم لوصف التفكير الهادف والمعقول،وهو تفكير ذاتي، يتم استخدامه في حل المشكلات التي تواجه الفرد،ويعمل على تشكيل الاستنتاجات،واتخاذ القرارات))[13]، ويهتم (بالتأمل والقدرة على التقييم)، ويهتم كذلك (بالتعقل والأمانة

العلمية)..ومن معايير(التفكير الناقد)[14] ذكر الفقهاء بعضها ،وهي (الوضوح)،و(الصحة)،و(الدقة)،و(الربط)،و(العمق)،و(الاتساع)،وينبغي في النهاية أن يكون هذا التفكير (منطقيا)،لأنّ المنطق سيساهم في تنظيم الأفكار وعرضها واضحة وغير غامضة ،وغير مزعجة ومتوحشة.

ومثل هذه المعايير ،والتقيّد بها تحدّد هوية البحث والباحث الناجح أيضا ،وهناك(صفات)[15] تحدّث عنها التفكير العربي القديم ،وألزم بها كل من يروم التأليف، ولازالت إلى اليوم تتحكم في العملية البحثية بمؤازرة أمور تقنية أخرى منها (توافر الرغبة الشخصية في موضوع البحث)،و(التجرد عن الهوى)،و(الأمانة العلمية)،و(الاستقامة أو النزاهة)[16]،و(الصبر والتحمل)،و(تواضع الباحث العلمي)،و(التركيز وقوة الملاحظة)، (القدرة على انجاز البحث)،و(الباحث المنظم)،وأخيرا تجرد الباحث علميا ،أي أن ((يكون موضوعيا في كتابته وبحثه،وهذا يتطلب من الباحث الناجح الابتعاد عن العاطفة المجردة في البحث،وأن يضع في حسبانه الوصول إلى الحقائق التي يجدها بشكل علمي تحليلي مقنع. وبعبارة أوضح يجب أن يبتعد الباحث عن إعطاء آراء شخصية أو معومات غير معززة بالآراء المعتمدة والشواهد المقبولة والمقنعة))[17].

من هنا ولكي لاتكون المعلومات مخنوقة وناقصة ،أو مبتورة،ينبغي أن تتوفر لدى الباحث هذه الصفات التي تُمكّنه من اكتشاف (المعنى بالقوة)،وهذه القوة لا بأس أن تكون قوة (ناجزة وتامة ومكتملة)، ((فالنّص لم يعد محكوماً برؤية تسير في سياق معنى محدّد،أو لم يعد محكوما بالرؤية البيانية التي تقصد الإبانة والوضوح.فالنّص فتح لنفسه مسارب جديدة وانشراحات نقلت المعنى من وضع الهيمنة و[إرادة القوة]التي بها كان المعنى يتعيَّنُ كوجود ميتافيزيقي وإيديولوجي أي [معنى بالقوة] إلى تعدّد يتيح للغة أن تتحرر من أسر تاريخ استعمالاتها،وتصبح بالتالي خارج [معقل الميتافيزيقا] كما يرى نيتشه))[18].

الإحماء الثالث:

فعل الكتابة نهاية التّشكل ومتعة الصّورة

وماذا بعد؟،ســؤال قد يتبادر للذهن عند نهاية الجمع ،هل نمضـــي في قول مالا يُقال ،للقول فتنة ،وســـؤال الكتابة يظل يُهيمن على كل التجارب الإبداعية، فالكتابة تحتفي بكل شـــيء ولكنها لا تصـرّح بكلّ شـيء والكتابة ((تدفع من يُمارسـها إلى الوعي.بمضـايقها.فهي ليسـت كولاجاً ،أو تجميعاً،فهي خطر ،وهلاك.ســـيف ذو حدّين،فإما أن تكون شـــعرا،وإمّا أن تظل ممارسة تبحث لنفسـها عن مسلك داخل مسَالك الكتابة بمعناها الخطّي،وليس داخل مضـايق الخطر التي تنأى بالشّـعر عن القصـيدة كنمط وتجعله يعيد النظر في انتسـابه لغير ما كان يُعرف به صـــفاء الجنس و واحديته))، للكتابة جغرافية ومســـالك تتكشــف للباحث وتتلون بطعوم كثيرة،ولاشـــك أنّ ((وعينا البائس أو حصـــادنا الفكري العقيم هو نتاج مراحل تاريخية تجمّدت بعنف الخطاب و تأسـيسـات إيديولوجية ووطنية ترسّـخت في الوعي والذاكرة بقسـوة الزمن والخطـاب وعبثيـة الحراســـة والعقـاب))[19]،للكتـابـة (أقـاليم) في ذهن البـاحـث تبدأ ب (الاختراق) وتنتهي ب (إزاحة) الوقائع وتنتهي ب (المجاوزة) ،وذلك للكشــف عن الحالة التي نحياها ونقر بها اتجاه المعروضـــات المعرفية والوقائع (الأســئلة)،التي تهيئ قدر من الوهم للباحث وتُقدّم له أفقا واسـعا يبتكر بداخله تجارب ليسـت كتلك [المُحصّـلة من القراءة]،وإنما تتيح له صوغ أشكال ملموسة ومُثُل مطابقة للإشارات التي يطمح في تثبيتها أو استهدافها.فهو حين يقتحم مثلا ببعض ((أســـئلته دوائر "المحظور"و"المحرّم" في الوعي الديني الســـائد والمسـيطر ،لا يقتحمها إلاّ بوصـفه خطابا بدوره،لا يزعم لنفسـه امتلاك الحقيقة.لكنه من جهة أخرى خطاب واع بذاته إلى حد كبير ،يسعى جاهداً إلى تجنب تزييف الإشكاليات،الأمر الذي يشدّه إلى إنتاج الأيديولوجيا.إنّه خطاب يحاول من خلال ما يثير من أسئلة مضـمرة في بنية الخطابات الأخرى–التي يقوم بتحليل وتفكيك أبنيتها– مقاربة بعض جوانب الحقيقة، بالمعنى النسبي، أي الثقافي التاريخي))[20]

ولاشــك أيضــاً أن الوظيفة المركزية للكتابة هي الإعلان عن المكبوت أو قول ملا يقال كما يقول (م .فوكو). الكتابة هي تأويل (الواقع الخام)، حتى ولو كان هذا الواقع يكشـــف عن تجدد قناعة مَقيتة لدى (الباحث)،و تســلب منه درايته به،وتحل محلها درايات أخرى نجمت عن القراءة .الباحث يصنع (أجوبة مهدّدة)،لأنه يُعيد إنتاج مغلف بالوهم، سيتولى النّقد مهمة التفكيك وفعل الهتك،وفعلا لدّحض،والإبطال هذا مهمة القراءة العفوية،أو القراءة المقصودة.

لذلك فالباحث يكتب لأنّ مهمته أن يكتب،و((الكتابة بالنسبة له فعل لا يقين له ولا إثبات،إنّه فعلُ المحو ذاته،حيث تنعدم الحدود وينتفي الأصـــل والنموذج،كتابة يتيمة.لها الفراغ والهذيان والهاوية.كتابة تشـتغل ضــد المعنى،فيها وبها تأخذ الذّات فُسـحةَ حُريتها لترحل في متاه هو جدَارُها))[21]،من هذا المنطق لا يمكن تحقيق نفاذ شخصية (الباحث)،لأنّه سيُعلن إفلاسه متى طرح هذه البضــاعة في أســواق النقد ،وتخلى عن بضــاعته للمســتهلك، فلم يبق له ســوى الاعتذار عن الاختلالات التي أصــابت العمل. فالكتابة هنا قد ترتبط برؤيا أو حلم،أو زاوية نظر ضـــيقة كالمعتقد أو الأيديولوجيا.الباحث لا يُعلن عن وظيفة تأليفه لأنها غير موجودة أصــلاً ولكنها تتبدى بإعادة المراجعة والتحول من (المنغلق والمطلق) إلى (المفتوح والنســبي)،والوصــول إلى أفاق فريدة يختلف فيها عن ســواه من (الباحثين) في (تكامل المفهوم) ،وفي (الأبعاد الفنية) وما اتصل بها من جمالية.ولعل هذا ما يجعلُ الكتابة تجربة في اللغة و بها، قبل أن تنشـغل اللغة بموضـوع خارجي عنها.ذلك أنّ هذا الخارج يشـتغلُ في اللغة ذاتها التي يتوجَّه إليها [الباحث][22] بوصْــفها منطوية على المقدّس وموشــومة بتصــوّرات ورؤى جامدة تســـلّلت إلى تراكيبها))[23]،والبحث عن علاقة اللغة بالأشـــياء تحيل إلى ((الممكن والمحتمل.ولذا فإنّ وظائفها متعدّدة تعدد الممكن والمحتمل.والمعنى فيها،لا يتوقف،قطعا،على أداء لغوي واحد.ذلك لأنّ اللغة– بالإضــــافة إلى دورها الايجابي في تكوين المعرفة– لعب ايجابي أيضا،يخالف المنجزُ فيها عادة العقل،ليجعل العقل مدركا لغير مألوفة،ومتجاوزا لغير معهوده،وهي بهذا المعنى،أداة تحرير له من عاداته،وأداة اكتشــاف لمعارف جديدة،حالت دون إدراكه لها، نماذجه ومعاييره التي تكونت فيه بحكم تكرار حدوث واحد في الطبيعة))[24]

الباحث لا يمكن أن ((يكون ســـيدا على خطابه يتحكم في إجرائه مثلما يحلو لـه،فللكلمات مكائدها،ولها أيضا ثاراتها،وكثيرا ما يفصح الخطاب عمّا لم يجل بخاطر منتجه أصلا..هناك فجوة تحصل بين النّص المبدع ووقائع حياة المؤلف كما جرت في التاريخ))[25].

هذه الأفكار تُعنى بوضــع (الباحث)،الذي يريد أن ينخرط في العملية البحثية دون أن يكون مخذولا من الأحكام التي يصـــدرها ،فهو يهفو أن يجاور المبدعين الكبار ،ويزاحم بدون ارتباك ،وبكثير من الحرية، وقليل من التورط في الانتهاك وفي الاستكشاف الفظيع للحظات المعرفية التي سبقته.فهناك (لحظة وهم)،ولحظة (اندفاع) كما يقول محمد لطفي اليوسفي .و لكي لا يتجنى الباحث على موضوعه يبدو أنه يُسائل ما يتعلق بالثقافة كما يسائل ما يتعلق بمسالك الموضوع في غير ثقافة المركز التي ينتمي إليها .هكذا ((فإنّ اختيار كتابة وتحمل مسؤوليتها يُحدّدان حريةً،إلاّ أن هذه الحرية ليست لها الحدود نفسها حسب مختلف لحظات التاريخ.ليس باستطاعة الكاتب أن يختار كتابته وسط نوع من المستودع اللاّزمني للأشكال الأدبية.ذلك أن الكتابات الممكنة بالنســبة لكاتب معيّن،تتم تحت ضـــغط التاريخ والتقاليد))[26]،ومثل هذه الحرية طبعا تنطوي على اللحظتين السابقتين (لحظة الوهم) و(لحظة الاندفاع)،والكتابة في اللحظتين تهدد بإفشـــاء ســـر ،وبالتالي هي [تخيف]،كما يرى رولان بارت،لأنها مُتجذرة خلف [اللغة] التي هي بالنهاية لا تهادن لأنها مأزق مجتمع.ويمكن للباحث أن يتسلّح وهو مسنود على اللغة برؤيا متفردة قابلة لكل المعاني،وقادرة على عدم ((توريط اللغة مع من اختزلوها كبضـــاعة كاســـدة))[27].وفي الواقع فإننا لا ((نكتب للآخر فقط،وإنما نكتب أيضـاً لإرضـاء ذواتنا.وتعلم الكتابة جيدا هو كذلك تعلم الحكم على الكتاب الجيدين..الكتابة مهنة،لكنها مهنة صعبة تقتضي تركيزا كثيرا وانضباطا كبيرا.والشيء نفسه ينسحب على الرسم والموسيقى))[28]،الكتابة تكشف عن منعرجات كثيرة ،ومادام ((النّص ليس نسقا مغلقا،وهو تناص يحيل إلى نصوص غير منتهية،فهو نسيج من الاقتباسات والإحالات والأصداء أعني من اللغات الثقافية السابقة أو المعاصرة التي تخترقه بكامله،وهناك أصوات عديدة تسكن النّص،وهو في ذاته قراءة وكتابة))[29] في آن ،وهذا أمر ينبغي أن يلح (الباحث)

على ممارســـته وفهمه في أثناء كتابة بحثه ومناقشـــة وتحليل الضـــفائر المعرفية التي بحوزته،ولكن هل بمقدور الكلمة أن تقول كل شـــيء ؟نتســاءل مع أدونيس،هل يمكنها ذلك؟ ((إنّ مايضـــفي أهمية فريدة على الكتابة هو أنها تهدم وتعيد البناء،وتنزع أقنعة الزيف.علينا أن نكتب من أجل تدمير كل كذب بغية تجاوزه،فمن دون ذلك،لن يعود للكلام والكتابة أي قيمة.إذا لم تكافح الكتابة هذا الكذب فإنها تخلق أقنعة أخرى،ويغدو الكلام حينئذ هو القناع الكبير الذي يتوارى خلفه مجتمع بأكمله))[30].وعموما فلا ((حقيقة في الكتابة ولا ســـلطة أيضـــا.في الاقتراب من فراغ الكتابة تتكشّـــفُ الحقيقة بوصـــفها وهماً.وبملامســـة هذا الوهم الحاجب يتحدّد نَسَب الكتابة الذي يجعل منها يتماً.يُتمٌ يحمي ذاته مأخوذاً إلى جذر البداية،وه جذر بدون أصل،لأنّ اليتم وجهٌ من وجوه الفراغ))[31] .

الخاتمة :

بعد هذا العرض البسيط ، يمكن استخلاص بعض الملحوظات منها :

أولاً: على الباحث أنّ يتسم بصفات أخلاقية تُمكنه من الدّخول لعالم البحث الذي يتسم بدوره بالتمنع والتّجاوز ولا يغطي قطاعا معرفيا واحدا،ولكنّه يتعاطى مع مســـالك معرفية متداخلة ومتعاضدة .

ثانياً: على الباحث أن يتزوّد بمعرفة تُمكنه من (القراءة)،ومن إعادة (التّأمل) متى ما وصـــل إلى نقطة (الاســتعصــاء)،ولا ينبغي أن نتورط مع المعرفة فيما هو فوق قُدرتنا.وهنا ســتلعب أخلاقيات الباحث دورها في خلق (الســؤال) و(الجواب)،لأنّ الصــفات لا تعوق اشـــتغال(القراءة) بل تقترح قوة الصفاء هذه الانفتاح على المعاني المبثوثة في المتون المُختبرة.

ثالثا: الكتابة جســـد موبوء ومُتحول،الكتابة هوية غير مكتملة ،لأنها تســـجّل انعطافا خطيرا شديد الاتساع فثمة كما يقول أدونيس ثلاث معضلات،أو ثلاثة أسئلة ،لابدّ لكل إنسان من

الإجابة عليها: سؤال الوجود،وسؤال الأخلاق وسؤال الصيرورة،أو الموت:بعد الحياة،ماذا يوجد؟،هذا الاتساع هو الذي يجعل الكتابة لا ضابط لها ولا سُلطة ،وهي تنخرط في كل شيء وتتآخى مع كل شيء (دم الكتابة)،(دم الدوالي) كما يقال.

رابعا: الكتابة جسم واللغة فيها (معطى اجتماعي،معطى مشترك بالمعاني والاستعمالات،ملكية مشاعة للناس لا للكاتب)،والأسلوب (معطى فيزيقي ملتصق بذاتية الكاتب وبصَميمته السّرية)،الأسلوب هو الرّجل أو من الرّجل نفسه،وبينهما – (اللغة والأسلوب)– توجد (قيمة شكلية أساسية هي ما يسميه بارت الكتابة).وتنتهي الكتابة بأنها (وظيفة:إنها العلاقة بين الإبداع والمجتمع) ،ومن هنا فالكتابة إشارة اجتماعية محمومة بالمكر والتّجاوز لا يرويضها إلاّ متمكن خبير.

ومن هنا فعلى الباحث أن يعرف ممكنات البحث ،ويعرف خبايا اللغة وإشاراتها،وتقنيات التعبير، ويشفع كل ذلك بما يملك من وصفات أخلاقية ستمكنه من فك ضفائر الجسد المعرفي، وكل كاتب باحث يشعر ويفكر ويكتب انطلاقا مما هو،وما هو،كذات كاتبة،مغايرة بالضّرورة ،لما هو غيره، قديماً،أو معاصراً. كما يقول أدونيس.

الهوامش:

– عادل محمد العدل: مناهج البحث في العلوم الإنسانية،دار الشروق للنشر والتوزيع ،الأردن ،(ط1)، 2004،ص[1]443

– نبيل محمد صغير: تشريح المرايا في نقد مشروع عبد العزيز حمودة،منشورات ضفاف والاختلاف، والأمان،(ط1)،2015،ص[2]52

– حامد طاهر: منهج البحث بين التنظير والتطبيق،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،(ط1)،2007،ص[3]15

– عزت قربي: فعل الإبداع الفني عند نجيب محفوظ الإطار والتهيئة والعمليات،الهيئة المصرية للكتاب،، (دط)،2005،ص82[4]

–مصطفى الكيلاني: فتنة الغياب إلياس فركوح وإبداعية "النص المتعدد"، منشورات أمانة عمّان الكبرى ، (دط)،2005،ص87[5]

–عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، (ط10)،2013،ص51[6]

– –مصطفى الكيلاني: فتنة الغياب إلياس فركوح وإبداعية "النص المتعدد"، ص99[7]

– المرجع السابق ،ص100[8]

– سعيد بن كراد: وهج المعاني سيميائيات الأنساق الثقافية ،المركز الثقافي العربي، (ط1)،2013،ص79[9]

–ميكائيل فويسيل، لغز الشر عند بول ريكور،تر أسماء مصطفى كمال، الدوحة،العدد126 أبريل 2018،ص33[10]

–محمد الساهل : الأدب والملَل ، الدوحة ، العدد126 أبريل 2018،ص98[11]

– عبد اللطيف فتح الدين: في أفق الحداثة قراءات في أعمال محمد سبيلا، الناشر كلية الآداب، بنمسيك،(ط1)،2013،ص128[12]

–محمد بكر نوفل وفريال محمد أبو عواد : التفكير والبحث العلمي ، دار المسيرة ،عمان،(ط1)،2010،ص61[13]

– للتوسع ينظر ،المرجع السابق ،ص 66 ومابعدها.
14

15– للتوسع ينظر : عامر إبراهيم قنديلجي: البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية، دار المسيرة، (ط6)،2015،ص39ومابعدها.

– للتوسع ينظر : مهدي فضل الله: أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق،دار الطليعة ، بيروت،(ط5)،2013،ص32 وما بعدهها[16]

– عامر إبراهيم قنديلجي: البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية، دار المسيرة، (ط6)،2015،ص40 [17]

18– صلاح بوسريف:مضايق الكتابة مقدمات لما بعد القصيدة، دار الثقافة الدار البيضاء، (ط1)،2002،ص43

19– محمد شوقي الزين: إزاحات فكرية مقاربات في الحداثة والمثقف،الدار العربية للعلوم ناشرون،ومنشورات الاختلاف، (ط1)،2008/،ص9

[20]-نصر حامد أبو زيد : النّص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة،اللمركز الثقافي العربي،(ط5)،2006،ص9

[21]- محمد بنيس: كتابة المحو،دار توبقال للنشر، المغرب،(ط1)،1994،ص67

[22]- عمدنا إلى استبدال [الشاعر] ب [الباحث] لتستقيم الفكرة.

[23]-محمد بنيس : الكتابة والجسد،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،مكناس،(دط)،2007،ص16

[24]- منذر عياشي: الكتابة الثانية وفاتحة المتعة،المركز الثقافي العربي،(ط1)،1998،ص59

[25]- محمد لطفي اليوسفي:فتنة المتخيّل ج3فضيحة نرسيس وسطوة المؤلف،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الأردن،(ط1)،2002،ص166

[26]-رولان بارت:الدرجة الصفر للكتابة ،تر محمّد برّادة،الشركة المغربية للناشرين المتحدين،(ط3)،1985،ص39

[27]- للتوسع ينظر محمد العباس: شعرية الحدث النثري، مؤسسة الانتشار العربي،ص15 وما بعدها ،وينظر حورية الخمليشي : الكتابة والأجناس، دار التنوير،ص46 وما بعدها .

[28]- محمد بوبكري:في القراءة ،دار الثقافة مؤسسة للنشر والتوزيع ،الدار البيضاء،،(ط1)،2003،ص162،163

[29]-محمد بكاي: أهوائيات بارت ومغامرات البارتية، منشورات الاختلاف،وضفاف،(ط1)،2017،ص135

[30]- أدونيس : الهوية غير المكتملة (الإبداع،الدين،السياسة، الجنس)،تر حسن عودة،بدايات للطباعة والنشر والتوزيع،(ط1)،2005،ص61،62

[31]- محمد بنيس : الكتابة والجسد،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،مكناس،(د.ط)،2007،ص24